الحكومة العراقية القادمة ستطالب بـ«الانسحاب» وقد تتهاوى أو تنفجر:

العراق «الايراني» يحيي «خمينية ثانية» في ايران

عبدالامير الركابي *

■ سادت في الفترة الاخيرة نغمة غريبة، تلغي العراق كوجود وكفعالية تاريخية وحضارية ،لصالح الوجود والفعل الايراني، فهل من المعقول اعتبار المنطقة التي تضم كل الحضارة العراقية، من سومر الى اكد وبابل، والكوفة والبصرة، وصولا الى بغداد، وكانها لم تكن، وان المدى الذي تمثله تاريخيا، ورمزيا، تحول الى «ايران» وحسب .

عندما ينظر خلال المنعطفات والمتغيرات الكبرى، الى التاريخ الخاص بكل مجتمع او امه عتيقة من امم الشرق خصوصا، ولها تاريخ عريق، يجري التركيز خصوصا على ثوابت ذلك التاريخ الاساسية من جهة وعلى المتغيرات التي يحدث ان تطرأ عليه مرورا، وتزول، وحين ينظر على سبيل المثال الى بلد مثل لبنان، يفهم بان هنالك مكونا من مكونات هذا البلد يبدو متوافقا من الناحية «الموضوعية» مع الغرب، ويقال هذا الكلام، او الحكم عادة، عن «الموارنة»، وتذكر جهات وطوائف او قوميات في المنطقة العربية، تشبه من حيث موقعها، واستجاباتها، ما عليه حالة هذا الجزء من الشعب اللبناني، وبغض النظر عن مدى صحة هذا الرأي او التقدير على المستوى التاريخي او خطأه، فهو لا ينطبق على الشيعة العراقيين باي حال من الاحوال، ومعلوم ان هؤلاء هم الجزء الاكثر «تعرقا» من الناحية التاريخية، قياسا الى الهجرات الحديثة التي عرفها العراق، في القرون الاخيرة، وتوجد من بينهم قبائل تعود الى ظهور العروبة الاول، والى ماقبل الاسلام والفتح، وهم كانوا في اساس تشكيل الكيان العراقي الحالي، وقد خاضوا مقاومة مستمرة على مدى ثلاثة قرون متصلة، ضد الاحتلال العثماني التركي، كما ان اول تعبير عن قيام حكم «عربي» للعراق، ظهر في جنوب العراق في القرن الثامن عشر، وعاد وتكرر في القرن ذاته، واول عملية اجلاء وتحرير من الاحتلال الايراني بالقوة من البصرة، عراقيا، وليس عثمانيا، قامت بها قبائل «المنتفك» العراقية الجنوبية عام 1776 في حادثة ملفتة، تشبه من حيث الموضع، والمعنى، ماحدث في معركة (ذي قار) الشهيرة، وهؤلاء هم من قادوا الثورة ضد الانكليز، وقاتلوا قبلها الى جانب الاتراك العثمانيين ضد الغزاة الاجانب، وكانوا مادة الحركة الوطنية العراقية الحديثة، وتربتها التي فيها ترعرعت، ومصدر حياتها وحيويتها وافكارها.

ومن الطبيعي والانصاف والحالة هذه، ان ينظر لهذا القسم الحيوي من العراق بما يستحق، وان يوضع اهل العراق وارض السواد، التي هي العراق، وتاريخه، وروحه، ووجوده، في المكان الذي تحتله في سجل الثابت الحضاري والتاريخي، مقارنة باي طارئ جديد، وليس من الجائز قطعا، قبول مفهوم الغاء هذا القسم الاساسي من العراق، ليحل مكانه تعبير «منطقة النفوذ الايراني»، مع ان هذه المنطقة من العراق تساوي من حيث تعداد سكانها، مايقرب من مجموع سكان دول الخليج العربي، مع ماتزدحم به من ارث تاريخ، يضاهي ما تملكه اية بقعة من بقاع الارض على الاطلاق، وتمور في قلبها تطلعات، ومواقف، ونزعات وطنية وحضارية لايمكن ابدا رؤية العراق، ومستقبله وحريته من دونها.

يتراوح حديث المصطلحات المدار من قبل الاحتلال واعلامه، واجهزته، حول تلك المنطقة الاساسية من العراق، بين كونها «امتدادا لايران» وبين كونها منطقة «النفوذ الصفوي»، وهو تعبير يلغي وجود «شيعة عراقيين» عرب، واغلب من يرددون هذا التعبير، لا يفقهون له معنى، لانه اصلا بلا معنى، ونحن نشك كليا في قدرة اي ممن يستعملون هذا الاصطلاح /الشتيمة، على توضيح، او شرح ما يقصدونه حين يستعملون مثل هذا التعبير، ومن المعلوم ان الحركتين، الصفوية، والعثمانية، قد نشأتا معا وسوية، وانهما انبثقتا من اصل واحد، قاعدته «تصوفية شيعية»، ومعلوم ان تنظيم الانكشارية العثماني، كان، وظل يدين بالتشيع التصوفي عبر مذهب «البكداشية»، الا ان العثمانيين تحولوا الى المذهب السني الحنفي لاسباب تتعلق بالسلطة والحكم، فالمذهب الحنفي، هو الوحيد الذي يجيز خلافة غير القريشي. ولهذا السبب، وبفعل الاحتكاكات الحدودية، والبحث عن مجالات النفوذ والسيادة، احتدم الصراع العثماني الصفوي، ورفع العثمانيون الاتراك شعار «الصفوية» باعتبارها شيطانا، وعدوا، والغوا بطريقهم، الشيعة ليحولوهم حيث وجدوا، الى مجرد «اتباع الصفويين» وكل من تحرك او اتخذ موقفا لاي سبب كان من بينهم، ضد الحكم العثماني، اعتبر تابعا لايران الصفوية، وقد ارتكز الموقف المذكور كما هي العادة، الى حجج وفتاوى مذهبية، كانت تكفر «القزلباش» ـ اصحاب الرؤوس الحمراء ـ اي الشيعة، باللغة التركية، واستنادا لفتاوى تعود الى اعوام 1512 و1533 اصدرها كل من حمزة سارو، وكمال باش زادة، وهما عالما دين تركيان، واعلنا فيها «ان اتباع الصفويين كفرة»، رفض السلطان العثماني محمد الاول (1730 ـ 1754)، محاولات نادر شاه، التقريب بين الشيعة والسنة، بمساعدة والي بغداد احمد باشا، ومساعيه لعقد مؤتمر النجف التقريبي.

ومن الممكن طبعا، فهم موقف الحكم التركي ضمن سياقه، وفي حينه، كما من الممكن وضع الشتائم والمصطلحات العدائية بين الطرفين المتنافسين على العراق، ضمن ظروفها، انما من الصعب فهم هذا المصطلح حاليا، وبعد ثلاثة قرون من الزمن، ومن مرور العقود الطويلة، التي اثبتت وجود العراق وكيانه الوطني، وخصائصه، وغيرت الكثير الكثير في تركيا وايران، ويمكن للمرء ان يسأل، ترى هل للصفوية وجود في عالم التشيع المعاش اصلا؟ الحقيقة والتاريخ ينفيان ذلك، فالصفويون عجزوا وقتها عن ان يوجدوا مذهبا خاصا، في مجال العقيدة واسسها، او ان يضيفوا تطويرات ذات قيمة في هذا المجال، كما انهم فشلوا في جعل منظورهم هو السائد، ضمن تاريخ وافكار وممارسات الشيعة في ايران والعراق والعالم، ومن المعروف ان الفرق المهم بين الممارسة الصفوية، والممارسة العراقية، قد تجلى وقتها، عبر منحيين، فلقد اراد الحكام الصفويون ان يلحقوا علماء الشيعة بالحكم، بينما رأى علماء الشيعة العراقيون في النجف، بان الارتباط بالحكام حرام، ومن هنا نشأ الخلاف، وتوسع الشرخ، ابتداء من منتصف القرن السابع عشر، بعد المعركة الشهيرة بين العالمين، الكركي، والقطيفي، اثر رفض الثاني موقف خدمة السلاطين والعمل تحت لوائهم، وذهاب الاول للعمل الى جانب السلطان طهماسب الذي تولى العرش في ايران عام 1625 .

ومنذ ذلك الحين تحول الصراع الى الواقع، واستمر حتى انتصر التشيع العراقي كليا، فالتشيع هنا قام على «الدعوة »، وجرى اجتذاب القبائل العراقية العربية في الوسط والجنوب «ارض السواد »، للمذهب الشيعي، عن طريق الدعاة «الموامنة»، الذين كانوا ينطلقون من النجف والحلة، ليستقروا بين الزراع ويعلموهم ، بينما تحقق التشيع في ايران، بالقوة والسيف اساسا، وفي العراق، تم اكتشاف وارساء مبدأ «التقليد» و«نظام الاجتهاد»، وهنا توطد مفهوم «الحوزة الدينية»، وتلك هي الاسس التي تحكم التشيع اليوم، وتمثل اساس كل ممارسة للتشيع في العراق، وايران، والعالم، وكلها عراقية صرفة، ومن منجزات تاريخ العراق، ومتطابقة تماما مع خصائصه التاريخية، اما بعض الشعائر ومنها الضرب بالسيوف والزناجيل «السلاسل»، فهي لا تعود في اصولها للصفوية، بل للبويهيين الذين حكموا العراق في الفترة العباسية الثانية، ولم يسبق ان عرفت في العراق مظاهر الغلواء الكريهة، من قبيل سب «الخلفاء الراشدين» الثلاثة، ممن تولوا الامر قبل الامام علي بن ابي طالب، مع انها عرفت في ايران لفترة، الى ان اوقفها (نادر شاه)، وثمة من يقول من بين الدارسين في الشعائر التي ذكرناها واصولها الحضارية القديمة، ان مظاهر التفجع، واللطم، لها اصول عراقية، تعود لممارسات الحضارات الاولى، ويرى بعض الباحثين المصريين، ان لهذه شبه بالممارسات الشعائرية المصرية ايام الفراعنة.

يمكن ان يفهم من مثل تلك الاراء والمصطلحات الغريبة، والمرسومة لاغراض هدفها تدمير اسس المنظور الوطني العراقي، بان ايران قوة طاغية وفعالة، ومؤثرة بصورة كاسحة على العراق، وهذا رأي ينطوي على حط من قيمة العراق، وحضارته، وخصوصية، وحيوية تاريخه، وهو مجاف لابسط وقائع التاريخ المجردة، فليس لايران تاريخيا اي تأثير معروف يذكر في الحضارة العراقية، بل على العكس، تمثل ايران مجالا حيويا للمؤثرات العراقية، ولسنا نريد ان نعود الى المانوية والمجوسية وغيرها، وانتقالها لايران من العراق، بل يكفي ان نذكر بان العراق، كان المنطلق الذي منه وصل الاسلام الى ايران، وكذلك التشيع، الذي هو مذهب عراقي اصيل، مثله مثل مذهب الحنفية السني المعروف بمذهب اهل العراق، وحيثما يتحدث قوميون متعصبون عن «الشعوبية»، ويضخمونها، فانهم ينسون كليا، اثر العرب والمسلمين الكاسح على الحضارة والثقافة الايرانيتين، ويحرمون كليا على تلك الحضارة العريقة، بروز بعض النزعات الفرعية، والطارئة، اذا هي ظهرت، او حاولت ان تحيي شيئا من ماضيها، هكذا تستطيع الشوفينية القومية المغالية، وليس الاسلام الرحب العظيم، ان تحول شجرة الشعوبية الطارئة، والجزئية الى غابة كبرى، بينما هي تهمل تماما غابة الاجتياح العربي الاسلامي لتاريخ، وحضارة فارس، في الماضي والحاضر.

كان العراق ككيان وحضارة، محكوما على مر التاريخ من حيث شروط تحققه، لحالتين، وظرفين، تمثلا، اما بالفراغ احيانا، او الازاحة احيانا، فالحضارة العراقية الاولى، قامت لانها سابقة زمنيا ولان الحضارات الشرقية المجاورة كانت غائبة، ولم يكن هنالك تهديد يأتي من الشرق او الشمال، وحين ظهرت تلك الحضارات، نشأت ظروف جديدة ادت الى اختلال في التوازنات الاقليمية، في حين كانت الحضارة العراقية اصلا، قد انجزت مهمتها كاملة، قبل ان تختفي من الوجود، ويقع العراق تحت احتلال الامبراطورية الفارسية، ولم تتحقق عودة العراق، وحضوره من جديد، الا بالازاحة التي حققها الفتح العربي الاسلامي، الذي هزم الامبراطوريات المسيطرة على المنطقة، غير ان العامل الذي ظل يمثل اهم اسلحة العراق وحضارته، ووجوده، جاء اولا، من قوة مثله وصلاحيتها الكونية، فهذه بالاساس، وليس عامل القوة العسكرية هو ما يؤمن على المدى البعيد، حضور العراق في المستقبل، كما حدث في الماضي، ابان ثورة الاسلام، ودعوته التي جعلت من هزيمة الامبراطورية الفارسية انتصارا للشعوب الايرانية كما للعرب. ومن يعتقدون ان الازاحة بالقوة، ممكنة اليوم هم مخطئون، ومن يظنون ان الفراغ قابل للتكرار، لا يدركون جوهر الحضارة العراقية وروحها، مع ان هذه النزعة موجودة، وهي تتضخم مع تعاظم الشعور بالاحباط، وبالتردي العام، ومن هنا يمكن ان نفاجأ بشعار صدام عن «القادسية» التي تكفر 60 مليون مسلم بجرة قلم، لتجعل من نظام البعث بديلا لعصر الراشدين والنبوة، بينما هي تحول الخميني الى كسرى. ومن المصدر نفسه ، ينبثق اليوم، خطاب الزرقاوي، الذي يبيح قتل الروافض العراقيين، بالضبط كما كان يفتي حمزة سارو وكمال باش زادة، في القرن السابع عشر.

من وجهة نظر الذين يؤمنون بالعراق ودوره وحضارته، ويدركون من منطلق الاصالة وخبرة التاريخ، شروط تحقق العراق الوطني اليوم، فان العراق ما يزال هو القوة الفاعلة في محيطه، وفي ايران بالذات، والثورة الخمينية التي اسقطت الشاه، تندرج من الناحية التاريخية، ضمن اطار نهضة التجديد السياسي والفكري الشيعي الثانية ، فالنهضة الاولى التي تحققت في العراق ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وانتهت الى «نظام الاجتهاد» و«التقليد» و«الحوزة»، وانجزت، بوسائل الدعوة، تبعتها منذ خمسينات القرن الماضي حركة التجديد الثانية، التي وضع اسسها، المفكر الاسلامي الكبير محمد باقر الصدر، وفي النجف كما نعلم، تشرب الخميني روح تلك الحركة، وعاش في غمرة ماكانت تثيره، ومايدور حولها وبسببها من افكار، وعمل على استلهامها، وتطويعها للواقع الايراني، الى ان تمكن وهو على تماس مباشر، وتفاعل مع لحظة التجديد الحالية، ورموزها في النجف، من اسقاط نظام الشاه، ولم يكن الحدث الهائل المذكور عارضا، او من الممكن ان يحدث، دون ان يولد صراعات ضخمة، ويبعث ديناميات تاريخية، شملت العراق وايران معا، وحولتهما الى ميدان تفاعلات شاملة، ومفتوحة، لم تتوقف بظهور الخميني، ولم تنته عنده، بل امتدت وماتزال لتشمل مجالا تاريخيا وجغرافيا شاسعا يزدحم بالظواهر، والافكار، والمصائر، كان من ابرزها تراجعات وجمودا طرأ في مسارات الثورة الخمينية، بمقابل انتصار المقاومة على الجيش الذي لا يقهر في جنوب لبنان، وصولا الى وقوع العراق تحت الاحتلال الامريكي وانهيار دولته.

كل تلك التطورات الكبرى، تعني ان الدفعة الثانية من موجة التجديد الاسلامي الشيعي ماتزال بعيدة عن النهاية، وما يزال افقها يتعرض لحكم تفاعلات ذات طابع شامل، وكوني، وتجلياتها النهائية لم تستقر، وتبادلات الظواهر بين البلدين الاكبر الفاعلين فيها، المتحاذيين جغرافيا، والمتداخلين تاريخيا، تتوالى، وانعكاسات التاثير المتبادل، لم تتوقف او تستقر، ولايوجد بين هذين الموضعين، دولة كبرى او صغرى، فلا ايران هي الصين او اليابان، او المانيا في الثلاثينات، او امريكا اليوم، ولا العراق امارة «ام القيوين»، وعلى عكس مايشاع، فان وقوع العراق تحت الاحتلال الامريكي، فتح الابواب امام عودة الفعل والتأثير العراقي في الواقع الايراني ، وما نراه اليوم من صعود نجم احمدي نجاد، هو تذكير بانبعاث «خمينية ثانية» تبدأ ملامحها بالاكتمال من اليوم، وتتحول الى خيار ايراني حاسم، على حساب تيار «مصلحة الدولة»، وممثله الاهم، رفسنجاني. والتغيير الحالي في ايران، هو من فعل وتأثير مجريات الصراع مع الاحتلال الامريكي للعراق، صحيح ان الايرانيين كانوا خلال الغزو، يميلون الى دعم قوى مرتبطة بهم مباشرة، وتمثل اتجاه التحالف مع الاحتلال، واستمروا كذلك، وقدموا للاحتلال اهم دعم، عبر رعايتهم لـ«العملية السياسية» الا ان هذه الوجهة لم تكن تمثل كل ايران، لا بل هي لا تمثل تيار «المرشد الاعلى»، وكان تيار رفسنجاني والاصلاحيين ، قد تحول الى خيار مسيطر بفعل مسار الحرب العراقية الايرانية وتداعياتها، واثارها، ووفاة قائد الثورة، مع ماقد تبعها من انغلاق في الافق، وفي المشروع السياسي والاجتماعي، بينما اظهر خامنئي عجزا عن المبادرة، ولم تتوفر لديه بعد الخميني، قدرات يمكن ان تعطي الثورة زخما في الرؤية، او في الوسائل الضرورية للابقاء على ديناميتها وحيويتها، وامام تراكم المشكلات، وتدهور الاوضاع في شتى المجالات، تعزز خيار «مصلحة الدولة الايرانية» واطلت ايران على العراق، خلال احتلاله، وبعد الاحتلال، عبر هذا الوجه من وجوهها المتصارعة.

والفريد ان تكون ايران الدولة الشيعية، قد جاءت لكي تخوض معركة حياة او موت، لا مع «السنة» العراقيين، بل مع الشيعة، واستهدفت من يمثلون بقايا واستمرار الموجة التجديدية الشيعية الثانية، التي منها وفي مناخاتها برزت «الخمينية»، وفظاعة المعارك التي خاضها تيار «المجلس الاعلى» الطائفي الموالي لايران في العراق، ضد التيار الصدري، تذكرنا بتفاصيل مسار وتاريخ حركة التجديد والصراع الطويل، بين «الحوزة التقليدية ـ الصامتة ـ»، و«الحوزة الناطقة»، او مرجعية الميدان، او مرجعية المرجع مبسوط اليد. كما جرت في الداخل والخارج على امتداد عقود، لكن تجربة اكثر من سنتين من الغوص في الوضع العراقي، انتهت الى تعزيز ملفت لموقع التيار الذي يقدم المبادئ على مصالح الدولة، وخطاب احمدي نجاد، ينطوي على مثل هذا المعنى، الذي يردده في المنطقة ايضا، السيد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس الفلسطينية، من دمشق وايران، كما ردده في مصر مؤخرا، مرشد «الاخوان المسلمين» ونائبه، اللذان اعادا تكرار كلام احمدي نجاد، حول «المحرقة اليهودية» بينما كانت التوقعات، والانباء تشير كلها، الى لقاء قريب يجري التحضير له، بين الامريكيين، و«الاخوان المسلمين» بعد الفوز الذي حققه هؤلاء في الانتخابات المصرية الاخيرة. ولا ينبغي اهمال انطلاق صواريخ الكاتيوشا من جنوب لبنان باتجاه اسرائيل، بعد صمت طويل، كل هذا يأتي، في اعقاب التشويش الذي تسببت به الانباء والاستعدادات الامريكية، لرفع الحظر عن لقاء الامريكيين مع «القوى الاسلامية المعتدلة»، وطغيان ضجيج الاسلام التكفيري، وها هي ايران تمهد الاجواء لانبعاثة اسلام مقاوم غير تكفيري، يشمل العالم العربي والاسلامي، ولا شك ان لهذا التغيير دوافع ومبررات استراتيجية، تتجاوز العراق، وقد لعب الكثيرون من حلفاء واصدقاء ايران، وبالاخص سورية وحزب الله بالاضافة لقوى عراقية، بحسب علمنا، دورا في تحفيز مثل هذا الموقف، وطالب هؤلاء بتغيير سياسات ايران في العراق خاصة، كما في الاجمال، الا ان اصل هذه المتغيرات، موجود في الواقع العراقي، والتحدي الفعلي للمنطقة اليوم، مبعثه الغزو الامريكي للعراق، والمواقف والممارسات المتعلقة بهذا الحدث، ومترتباته، هي التي تقرر وتحسم عمليا داخل ايران، غلبة اتجاه على آخر، ففي العراق ومنه، على عكس اي موضع حليف لايران، تأتي المخاطر المباشرة، لتغدو داهمه، وتضرب عمق الواقع الايراني، وضرورات مواجهتها تترجم فورا، وعمليا، في الحياة والخيارات السياسية الايرانية، لقد كان العراق على سبيل المثال، هو اللاعب الفعلي الاول في الانتخابات الايرانية الاخيرة ورفسنجاني اسقطه جيش المهدي المذبوح على يد من يعتبرون اصدقاء ايران في العراق.

ما تزال موجة «الخمينية الثانية» التي نتحدث عنها، في البدايات، والجميع يستمعون منذ فترة لخطب احمدي نجاد، ولايكادون يتبينون ماوراء نبرته الجديدة القديمة ،الا ان الخطوات العملية، سوف تأتي، ولن يستطيع نجاد الاطالة وهو يكرر الشعارات والاقوال الثورية، ولا بد له من الانتقال سريعا نحو خطوات عملية، ربما يكون بعضها قيد التحضير والاعداد في العراق وخارجه، فهل ستدعو ايران لمؤتمر للقوى الاسلامية، والقوى المناهضة للهجوم الامريكي على المنطقة، بهدف رسم استراتيجية شاملة للرد، وهل تتحول طهران الى الاقتناع بضرورة دعم قيام «عملية سياسية وطنية عراقية مستقلة عن الاحتلال» وتسهم في احياء وتجسيد النداء الوطني الى قيام (مؤتمر وطني تأسيسي مستقل عن المحتلين وعمليتهم السياسية ويضم كافة مكونات العراق وقواه الحية ومقاومته السياسية والمسلحة) مؤتمر يؤسس للعراق التوافقي، الديمقراطي الحر، ويرسي قواعد اعادة بنائه من أسفل؟ ويؤسس لالغاء مبرر وجود «العملية السياسية الامريكية» القائمة على المحاصصة وتكريس الطائفية والتأسيس للتقسيم ؟

من هنا فصاعدا، ستكون «العملية السياسية الامريكية» ميدان صراع حاد، فالتيار الصدري الذي دخل الانتخابات، ولا بد ان يساهم في تشكيل الجمعية الوطنية، والحكومة، سيطالب فورا بانسحاب القوات الامريكية من العراق، ويدعو المجلس والحكومة، لان تقدم طلبا رسميا بذلك، وهو سيقيم، ان لم يكن قد شرع في اقامة، تحالف مع ممثلي «السنة»، وسيقوي هذا الموقف، الاتجاهات الوطنية، ويوجه ضربة قاصمة للتوتر الطائفي واسبابه، ولاشك ان هذا التطور، سوف يزعج الاطراف الكردية، ويحرج الطرف الموالي لايران داخل الجمعية الوطنية والحكومة القادمة، مع ان هذا الاخير، على علم بالاسباب، والشروط التي قبل التيار الصدري، الدخول في الانتخابات على اساسها، ليحقق الانتصار الانتخابي الذي لم يكن ممكنا تحقيقه من قبل قائمة «الائتلاف» لولاه. وحتى في ذلك الوقت، لن تترك اوساط داخل ايران، دعمها للتيار الطائفي الشيعي، المتوافق مع «العملية السياسية الامريكية»، الا ان هذا التيار سوف يضعف سياسيا، وميدانيا، بضوء الانقلاب الذي سيطرأ على المشهد السياسي العراقي برمته.

فمعسكر القوى المناهضة للاحتلال، سوف يتطور، ويتم حتما تجاوز الحواجز الطائفية، ليتبلور على الارض اتجاه «الكتلة العربية الواسعة» الشيعية /السنية، كقاعدة تعيد تشكيل العراق، كما سيأخذ بالتبلور منحى الانتقال، من حقبة تخلخل اسس الكيان بعد انهيار الدولة، الى استعادة ركائزه الاساسية من جديد، وعلى قواعد مختلفة، ومع تعدد اشكال النشاط الوطني داخل الجمعية القادمة، وخارجها، واعادة ترتيب وضع المقاومة المسلحة، وتجديد النداء الى «المؤتمر العام التأسيسي»، والسعي لاقامة «آلية وعملية سياسية وطنية» مستقلة عن «العملية السياسية الامريكية»، ومضادة لها، طبيعة وتوجها ودورا، فان زخم العملية الوطنية، والمقاومة، وافاق اعادة تشكل الوطنية العراقية، سوف تتوطد بقوة، خلافا لما كان الاحتلال يريده او يتوقعه. وكل هذا لا ينبغي ان يكون معزولا عن اجمالي حركة الرد العربي الاسلامي على الغزو الامريكي، ففي العراق يتقرر مصير الغزو، وحول هذه البؤرة، يفترض ان تتشكل عملية تحشيد القوى المناهضة للهيمنة الامريكية عربيا واسلاميا وعلى مستوى المعمورة. وكل هذا سيجري بظل تفاعلات تفضي كل يوم الى مزيد من تبلور الوطنية العراقية، ومن حضور وتجلي رد التاريخ العراقي على التحدي الكوني الامريكي.

* كاتب من العراق يقيم في فرنسا

عن اشد الامبراطوريات بأسا واقصرها عمرا

حمدان حمدان*

■ قبيل اتخاذه قرارا بشن حرب ثلاثينية ضد العراق، في عاصفة الصحراء عام 1991، كان الرئيس جورج بوش الأب، يصرخ على الهاتف في وجه الملك الاردني حسين قائلا (لماذا تريد التوسط بيننا وبين مَنْ أثاروا المشكلة في وجهنا.. ان صدام حسين في سعيه للاستيلاء على الكويت، انما يريد السيطرة على ثلث الطاقة العالمية النفطية.. انه يلعب بنمط حياتنا كشعب امريكي)، وبالفعل، فانه مع انتهاء الحرب الباردة، فان وجودا لعرقلة الفرص المتاحة لتوسع امبراطورية رأس المال العالمي، لم يعد قائما، كذلك رافق انهيار المعسكر الآخر، صعود ايديولوجي لدرجة الزهو بنهاية التاريخ، مما زود العولمة الامريكية بحرية التصرف من اجل حماية وتعزيز رسوخ نمط الحياة الامريكية القائمة على حامل ثلاثي: الدولار والنفط والمدفع.

غير ان نمط الحياة الذي تشدد معه بوش الأب، لم يكن لكل الامريكيين بالطبع، فهناك بيانات تشير الى ان سدس الشعب الامريكي (زهاء خمسين مليونا من غير سلالة الانغلوسكسون!) يعيشون اما مع خط الفقر او دونه، كما ان طفلا من ستة اطفال امريكيين يبيت على الطوى نهار اليوم وليله، ونذكر ان الرئيس السابق كلينتون صرح ذات يوم بان واحدا بالمئة من تعداد الشعب الامريكي (اي زهاء ثلاثة ملايين) يمتلك ما يساوي ملكية ثمانين بالمئة من الشعب الامريكي (اي زهاء مئتين واربعين مليونا) اما البقية ما بين (المافوق والماتحت)، فانهم يصارعون صروف الدهر، ما بين الدخل والضريبة والتأمين والتقاعد.. ومنذ ان تم تحرير الدولار من قاعدة الارتباط بالذهب كمقياس اي اوائل السبعينات، فان الولايات المتحدة باداراتها الجمهورية والديمقراطية، اطلقت العنان لمبدأ القبول بالاستدانة بالدولار، وذلك بغرض بناء هرم اسطوري من رأسمالية شمولية على نطاق عالمي، حتى وصل رقم الدين غير المدفوع الى مبلغ فلكي يقدر بثلاثة وثلاثين تريليون دولار على كاهل الادارات المتعاقبة، وهو دين يتوزع بين ديون اتحادية خاصة بالولايات، واخرى محلية مؤسسية وشخصية.. اما ديون امريكا الخارجية فتصل الى ثلاثة تريليون دولار، معظمها لصالح الصين واليابان.. وقد علق احد الاقتصاديين الماليين، بأنه من اجل سداد هذه الديون، فان على كل مواطن امريكي ان (يتبرع) للادارة بمبلغ مئة ألف دولار من جيبه الخاص! وبحسب المعدلات الجارية اليوم، فان ثمة زيادة في الديون الامريكية، للخارج، تتراوح ما بين اربعمئة مليار وخمسمئة مليار في السنة الواحدة، وهو دليل آخر على تفاقم المديونية الامريكية الخارجية، دون أمل في جسر الهوة لمستقبل منظور.

ومع وداعة الحديقة اللاتينية الخلفية للولايات المتحدة، واستقرارها لصالح مليارات الشركات الامريكية حتى وقت قريب، فقد وفر الانعتاق من مشاكل منظمات لا تينية تحررية، مع هزيمة امبراطورية الشر الشيوعية، كامل الغطاء للانتقال من مرحلة الاحاطة بمناطق النفط الى مرحلة السيطرة المباشرة عليها، ولم يكن هذا الانتقال صعبا بالنسبة للمنطقة النفطية العربية، خارج العراق، لوقوع عدم الفاصل بين الاحاطة والسيطرة اصلا، لكن العراق كان قد صادر قرار التصرف بالنفط بتأميمه.

وهناك واقعة تاريخية ذات دلالة، تشير الى شدة انغماس المصالح الامريكية بمستقبل النفط العراقي الذي يقدر احتياطه اليوم من امريكيين، بمئة وخمسة عشر مليار برميل، اي ما يساوي بأسعار اليوم، خمسة آلاف وستمئة مليار دولار، ولمدة نصف قرن مقبل ابتداء من عامنا هذا، وهذه الواقعة تشير الى انذار الرئيس الاسبق هنري ترومان، للرئيس السوفييتي جوزيف ستالين، بعدم الاقتراب من المياه الدافئة تحت وعيد الاستخدام المماثل للقنبلة الذرية في هيروشيما، حيث لم يكن السوفييت قد توصلوا الى صنعها بعد. فالنفط منذ نهاية الحرب العالمية الاولى كان في محل اهتمام اقصى لا بصفته شريانا وحيدا للصناعة بعد افول الطاقة على يد الفحم الحجري فحسب، بل بصفته اسبقية في الألعاب السياسية الماكرة، حين يبدو استعمار العراق واعادة استعماره والضغوط ما فوق الطبيعية التي مورست عليه بُعيد استقلاله، كلها ليست حوادث عارضة في تاريخ قسري مرتبط بالتحولات المضطردة لرأسمال عالمي، امام منطقة تصاغ بلغة جنتلمانية غربية بسائل حبر اسود، كما النفط في شكله الخام، او في كونه اسهاما استثنائيا في تراكم القيمة المضافة.. وهو ما يجعله النموذج المصطفى لسلعة تمثل سياسة مسبقة مناسبة وغير عادية، بل ووسيلة سيطرة مقبلة، تضعها في مصاف ازدراء حتى الشرعية الدولية، التي جلدتنا امريكا في سبيل صيانتها واحترامها.

فالطلب العالمي على النفط، يرتفع سنويا من الصين والهند فقط، بنسبة 2,5 بالمئة عن السنة السابقة، وبحكم عوامل، ليس اقلها عدم التوصل الى بديل للطاقة غير النفط، او الاضطلاع بتنفيذ سياسات ترشيد نفطية، لمئتين وسبعين مليون سيارة امريكية تجوب دواخل البلاد من المحيط الى المحيط.. ومع هذا المشهد الذي هو نمط حياة، فان السياسات في البلدان المتقدمة تواظب على تثبيت سعر وحدة الطاقة من النفط، بحيث يعادل نصف مثيله في البلدان المنتجة له، وفي جميع الاحوال فان احدا لا يستطيع الحد من توسع الطلب على كنز الطاقة الثمين، فالامر هنا لا يتعلق بالنفط كسلعة تجارية بين سلع اخرى، بل انه النفط في ذاته، كمنتج طاقة اول، ومَنْ يضع يده عليه، فانه يضع يده على مفاتيح القرن، لا لانه هو الوسيلة الفعالة لطرد اشباح المنافسين العالميين لقرن امريكا الراهن، بل لانه وهو في وضعه الخام، يشكل السلعة الاسرع في دورة رأس المال لانتاج الربح وما يسمى بالقيمة المضافة.

ولعل التشاؤم الامريكي كان قد بلغ ذروته حين اقدم العراق على تسعير نفطه باليورو، اذ رغم حصة العراق المتواضعة بالنسبة للانتاج العالمي آنذاك، الا ان الخشية من الخطوة (التسعير باليورو)، كانت كافية في ان تمتد لآخرين من المنتجين، فالعلاقة الطردية بين الهيمنة الامريكية وصحة الاقتصاد الامريكي، هي علاقة في اتجاهين متبادلين، وفرض الدولار كعملة عالمية يؤول الى فرض السيطرة على التجارة العالمية خاصة في بُعدها التصديري والاستهلاكي، كما يمد الولايات المتحدة بما هو ابعد من مجرد نفوذ على سياسات البلدان المنتجة، فالروابط بين نفط الخليج العربي والدولار أقام علاقات اجتماعية وثقافية وسياسية ما فوق اقتصادية، بل لعله اقام روابط عسكرية، سمحت لبعض دول الخليج بأن يُغزى بلد عربي شقيق من اراضيها، لمرتين في غضون عقد واحد دون تكبيت للضمير. واليوم فان شعب العراق لا يبتغي من جواره العربي الا الراحة مع الاذعان، فقد قرر منذ وقت طويل ألا يعتمد الا على نفسه، وها هو يقارع اعظم قوى الارض باستبسال نادر، دفع بأصحاب القرار العالمي لان يعترفوا في وقائع ثلاث، اعتراف السيد بوش بمعلومات استخباراتية مغلوطة ادت الى شن الحرب على العراق، ومثلما ان الولايات المتحدة كانت على علم مسبق، بقرب استسلام اليابان في المراحل الاخيرة من الحرب العالمية الثانية بحكم شهادة اعظم جنرالين امريكيين في ميدان الحرب ذاتها (ماك آرثر ودوايت ايزنهاور)، فان امريكا اصطنعت الخطأ في التقدير، فأجرت تجربتها النووية الاولى، ولكن هذه المرة على الانسان والحجر والشجر.. كذلك فان القاء الملامة، على (المغلوط) من الاستخبارات، لا ينقذ من الحقيقة القائلة بان امريكا كانت على يقين من خلو العراق من اسلحة الدمار الشامل، وان بوش ومع الطاقم الامريكي ـ الليكودي، كانوا لا يخفون هوسهم بغزو العراق وربما منذ اللحظات الاولى لاداء اليمين الرئاسية.

اما الواقعة الثانية فتشير بالدليل الملموس، الى ضائقة بوش الخانقة، حين يضطر للتشاور مع وزراء سابقين لا دخل لهم في قرارات الادارة، ومن ثنائي الحزبين الجمهوري والديمقراطي على حد سواء، ورغم انها علامة ديمقراطية يمكن التباهي بها، الا انها مع ذلك، علامة تفصح عن اضطراب خطير، يمس وضع الولايات المتحدة مع الخارج بدءا من العراق، وليس انتهاء بالاوضاع الجديدة في امريكا اللاتينية، اذا لم يعد خافيا ان الحديقة الخلفية لواشنطن، عادت تميل نحو يسارها، ذي النكهة الوطنية الخاصة، وكاد يصبح في حكم المؤكد ان انتخابات ما ستجري في دولة من دول القارة، ستأتي بحكومة وطنية ويسارية، ففي الارجنتين وصل للحكم يساريون بزعامة آرنستو كيرتشز، وفي البرازيل يتموضع سياسيون برئاسة لويز سيلفا، وهم معادون لسياسات الولايات المتحدة في القارة، وفي الارغواي ينهض تيار شعبي مناهض لواشنطن، بزعامة تاباريه فاسكينتر، وفي مكان آخر من القارة، ثارت بوليفيا لرمز الكفاح العالمي من اجل الحرية تشي غيفارا، حين انتخبت الهندي المتواضع من اصل السكان، ايفو موراليس.. وفي المحصلة فان ثلاثمئة مليون من مجموع سكان القارة البالغة ثلاثمئة وخمسة وستين مليونا، يقفون تحية لكاستر وشافيز، اما في تشيلي فسوف تفوز السيدة ميشلين باشليت، وهي التي ستنتقم لألندي آخذة ثأرها من واشنطن وربيبها بينوشيت.

اما الواقعة الثالثة في الاعتراف فانها تأتي على الطريقة الانكليزية التحريرية والتسللية فالديمقراطية عند السيد سترو وزير الخارجية البريطانية، هي ان تقبل بنتائج الانتخابات سواء جئت منصورا او مهزوما، ونحن نقبل مثل هذه النتائج، اذا قبل هو بمماثلتها في بلاده، من تزوير وشراء اصوات ونقل صناديق وانعدام احصاء وصهاريج انتخابية من ايران الى العراق.. فمشكلة واحدة على هذه الشاكلة، يمكن ان تقيم الدنيا ولا تقعدها في قرية بريطانية، فكيف الحال اذا كانت اللعبة التزويرية تعم بريطانيا العظمى؟ وفي الحقيقة فان السيد سترو في مهمته العيدية، لم يهبط فوق البصرة، كي يقول شيئا مهما، عن الانتخابات العراقية، بل شيئا محددا لجنوده المنهكين، وقد قالها ملء السمع والب